تأملات في سورة الفرقان

الدكتور حسن محمد باجودة

تأمّلات في سورة

الفرقان

الدكتور حسن محمد باجودة
أستاذ الدراسات القرآنيّة البيانية
جامعة أم القرى - بمكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد للّه ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

في دراستنا المتأمّلة للقرآن الكريم ، سبق لنا ، بعونٍ من اللّه تعالى وتوفيق ، أن درسنا على التّوالي السّور التّالية : سورة يوسف ، سورة مريم ، سورة يس ، سورة الإسراء . وكلّ هذه السّور من المكّيّ من القرآن . ومع أنّ لكلّ سورة طابعها الخاصّ في عرضها لموضوعاتها ومعالجتها لقضاياها ، فإنّها جميعها ، تنتظمها طريقة القرآن الكريم الفريدة في الرّبط بين كلّيّات المعاني وجزئيّاتها ، بالعديد من الرّوابط الظّاهرة والخفيّة . وبما أن كلّ سورةٍ كريمةٍ لها وسيلتها الخاصّة بها لتحقيق تلك الطّريقة ، فلا مندوحة إذن من دراسة البحر اللّجّيّ لكلّ سورةٍ من سور القرآن الكريم ، دراسة بيانيّة ، مع التّمثّل الدائم للحقيقة القائمة من أنّ القرآن الكريم كتاب هداية أوّلاً وآخراً . وأيّة نفسٍ تستطيع أن تفعل بعض ذلك ؟ إنّها النّفس الّتي باركها اللّه تعالى .

وها نحن أولاء يقع اختيارنا على سورة الفرقان المكّيّة في

مجموعها ، كي تكون مجالاً لدراستنا تحت عنوان « تأمّلات في سورة الفرقان » والّذي يوجّهنا لاختيار هذه السّورة الكريمة أو تلك ، مجالاً للدّراسة ، هو الإحساس بأنّنا ربّما كنّا ، وقت الاختيار ، أقرب فهماً لها وأكثر قدرة على محاولة تبين معانيها ومراميها . لهذا يتّضح أنّ اختياراتنا حتّى الآن ، مقصورةٌ على المكّيّ من القرآن الذي نزل قبل الهجرة والّذي يوجّه في مجموعه لأصحاب قرية مكّة المكرّمة ، وقليلٌ منهم المؤمنون وأكثرهم المجرمون . ولهذا يتضمّن المكّيّ من القرآن من الخصائص ما يتمشّى مع طبيعة تلك المرحلة المبكّرة من تاريخ الدّعوة . ولمّا نتعرض للمدنيّ من القرآن الّذي نزل بعد الهجرة ، والّذي يتعامل مع خير أمّة أخرجت للنّاس ، ويعالج القضايا المختلفة الطبيعيّة الّتي تصادفها الدّولة الفتيّة في المدينة المنوّرة .

وأقول عن هذه الدّراسة لسورة الفرقان المباركة ما قلته عمّا سبقها من دراسات : إنّي أشهد اللّه الّذي لا إله إلاّ هو أنّي لم أشأ لحظة من اللّحظات أن أحمّل حَرْفاً واحداً من كتاب اللّه تعالى فوق ما يحتمل ، ومن كانت له أيّة ملاحظة على هذه الدّراسة فلا يتردّد في إبدائها فالحقّ أحقّ أن يتّبع ، وقد انتفعت مما أبدي من ملاحظات على الدّراسات السّابقة .

وفي الختام أسأل اللّه تعالى أن يأخذ بأيدينا إلى أقوم سبيل وألاّ يؤاخذنا بما بدر منّا من تقصير : ﴿ ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربّنا ولا تَحْمِلْ علينا إصراً كما حملته على الّذين من قبلنا ، ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانْصرنا على القوم الكافرين ﴾ ﴿ سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون * وسلامٌ

على المرسلين * والحمد للّه ربّ العـالمين ﴾ . وصلّى اللّه وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد للّه ربّ العالمين .

الجمعة ، ١٣/٦/١٣٩٦ هـ
الموافق ١١/٥/١٩٧٦ م
استراثفيلد ، سِدْني ،
أستراليا

د. حسـن محمّد باجـودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الإهداء

إلى الّتي رعتني صغيراً بعد وفاة والدتي ،

إلى جدّتي تغمّدهما اللّه تعالى

برحمته ورضوانه .

سُورَةُ الفُرقَانِ

ترتيبها ٢٥ — آياتها ٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا
﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ
يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾
وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ
افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا
﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ
عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا
مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ
لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ
إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ

ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ
كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾
إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ
أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾
لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ
أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ
لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا
يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى
هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ
يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ
وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ

كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا
نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾
وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ
لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾
۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا
﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ
حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ
هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا
وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ
يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ
فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ

وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ
يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا
وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً
وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾
وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾
الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى
الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ
نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ
آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ
وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا
لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ
الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ

كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ
إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ
لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ
مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾
أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا
كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ
ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا
﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ
لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾
وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ
مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ
لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ

وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ
ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا
وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ
نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ
عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ
خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ
أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ
فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ

هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ
يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا
﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا
لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾
وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ
أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ
مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا
فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ
مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ
مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا

لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا
صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ
فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي
لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

تمهيد

ثمة مجموعة من المسائل المتعلّقة بهذه السّورة الكريمة نودّ أن نتبيّنها بين يدي دراستنا وهي كالتّالي :

(١) هذه السّورة مكيّة في قول الجمهور . وقال ابن عبّاس وقتادة : إلاّ ثلاث آيات نزلت بالمدينة وهي[١] : ﴿ **والّذين لا يدعون مع اللّه إلهاً آخر ولا يقتلون النّفس الّتي حرّم اللّه إلاّ بالحقّ ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً * إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدّل اللّه سيّئاتهم حسنات وكان اللّه غفوراً رحيماً** ﴾ ويمكن أن نُلْحق بهذه الآيات الثلاث الآية الرّابعة الملتحمة بها معنويّاً ، أعني قوله تعالى : ﴿ **ومن تاب وعمل صالحاً فإنّه يتوب إلى اللّه متاباً** ﴾ . وهذه الآيات الثلاث ـ أو الأربع ـ من مجموعة الآيات المتعلقة بعباد الرحمن[٢] وإنّما تأخّر نزولها لأنّها تجنح لشيء من التّشريع المتعلق ببعض الحدود ، وبخاصّة ما يتّصل منها بجريمتي قتل النفس الّتي حرّم اللّه تعالى إلاّ

---

(١) الآيات ، ٦٨ ـ ٧٠ .

(٢) تبدأ بالآية الثّالثة والسّتّين حتّى نهاية السّورة .

بالحقّ والزّنى . وقد كان المجتمع المدنيّ في مرحلة من النُّضج تهيئه لفهم أمثال هذه القضايا وتطبيق الأحكام بحقّها . واللّطيف في الأمر أن مثل هذه المراعاة تبدو أيضاً في سورة الإسراء المكّيّة في مجموعها حيث تأخّر الى ما بعد الهجرة نزول بعض آيات الحكمة المتعلّقة بالتّشريع ، ومنها الآيتان المتعلّقتان بالنّهي عن الاقتراب من جريمتي الزّنى وقتل النّفس الّتي حرّم اللّه تعالى إلاّ بالحقّ ، وذلك على الرّغم من أنّ آيات الحكمة في الإسراء ، وآيات عباد الرحمن في الفرقان ، تمثّل كلٌّ كتلةً متماسكة من الآيات . وهاتان هما الآيتان الكريمتان من آيات الحكمة ، قال تعالى[1] : ﴿ **ولا تقربوا الزّنى إنّه كان فاحشةً وساء سبيلاً * ولا تقتلوا النّفس الّتي حرّم اللّه إلاّ بالحقّ ، ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يُسْرِف في القتل إنّه كان منصوراً** ﴾ .

وإذا كان بعض آيات السّور المكّيّة قد تأخّر نزوله على المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم إلى ما بعد الهجرة لحكمة ، فقد عاد القرآن الكريم بعد نزول آخر آيه إلى صورته الّتي كان عليها في السّماوات العُلى حيث إن ترتيب آيه وسوره بتوقيف من النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم الّذي أوحى إليه جبريل عليه السّلام بذلك .

(٢) أمكن تقسيم السّورة الكريمة حسب القضايا المتجانسة الّتي تعالجها إلى خمسة أقسام .

الأوّل وينتهي بنهاية الآية السّادسة وهو بدوره ينقسم إلى قسمين يتكوّن كلٌّ من ثلاث آيات .

---

(١) سورة الإسراء، ٣٢ ، ٣٣ .

الثّاني ، وينتهي بنهاية الآية الرّابعة والثّلاثين ، ويُعْنى هذا القسم بسرد اعتراضات أربعة[1] لكفّار مكّة ويكرّ عليها بالنّقض .

الثّالث ، وينتهي بنهاية الآية الرّابعة والأربعين ، ويُعْنى هذا القسم بإنذار كفّار مكّة ، عن طريق ذكر مصائر بعض الجماعات السّابقة المكذّبة ، بإهلاك اللّه تعالى لهم ، وتوضيح موقف كفّار مكّة المماثل لأولئك . فعلى القوم أن يأخذوا حذرهم .

الرّابع ، وينتهي بنهاية الآية الثّانية والسّتّين . وقد تبيّن أنّه يتعامل بدرجة أكبر مع الرّاشدين الّذين يمكن أن يتذكّروا ويقوموا بما يجب عليهم من شكر للّه تعالى المنعم المتفضّل . وقد عُنِيَ هذا القِسْم بلفت الانتباه الى نعم اللّه تعالى حيث قد سخّر للإنسان كلّ ما في السّماوات وما في الأرض . كما تبيّن أنّ ثمّة إطارين كبيرين تجلّت فيهما هذه النّعم . الأوّل ويتكوّن من شقين ، وهو يعنى بالجانب المادّيّ من النّعم . والثّاني ويتكوّن من شقّين أيضاً ، وهو يُعْنى بالجانب الرّوحيّ أو المعنويّ من النّعم أمّا شقّا الإطار الأوّل فهما الليل والنّهار ، والسّماوات والأرض . وأمّا شقّا الإطار الرّوحيّ فهما القرآن الكريم والرّسول العظيم .

الخامس ، وينتهي بنهاية السّورة الكريمة . وهو يكاد يكون خاصّاً بذكر عددٍ من صفات عباد الرّحمن ، الثّمرة الطّيّبة للجهاد في سبيل اللّه والدّعوة إلى الصّراط المستقيم والصّراع الأزليّ بين الخير والشّرّ ، الإيمان والكفر ، التّوحيد والإشراك مع اللّه تعالى غيره .

(٣) تنصّ الآية الكريمة الأولى من السّورة على أنّ رسالة الإسلام شاملةٌ للعالمين . ولمّا كانت هذه السّورة مكّيّة فمعنى هذا أنّ رسالة

---

(١) يصحّ أن تكون الاعتراضات بالتّفصيل خمسة أو ستّة .

الإسلام منذ فجرها أريد لها أن تكـون عالميّـة . وهنا يقف حسيـرين ، أمام هذه الحقيقة ، الزّاعمون بأنّ سنّة التّطور شاملةٌ لكلّ عقيـدةٍ أو مبدأ أو فكرة . إنّ هذه العقيدة السّماويّة ، تنفرد بكونها عالميّة منذ فجرهـا . وقد عمّقت هذا المعنى الآية الكريمة من السّورة[1] : ﴿ ولو شئنا لبعثنـا في كلّ قريةٍ نذيراً ﴾ .

(٤) القرآن الكريم يستعير العديد من الألفاظ والتّعابير الّتي تجيء على ألسنة العرب في مناسباتٍ بعينها بقصد تقريب المعاني أوّلاً للعرب الّـذين نزل القـرآن الكريم بلسـانهم . وذلـك دليـلٌ على أنّـه ينتـظر من العرب أن يقوموا بما يجب عليهم من خدمة الكتاب العزيز ونقل تعاليمه للخـافقين والعمل على نشـر الـدّين الّـذي ارتضى اللّه تعـالى لعبـاده . وتبـدو هذه الـظّاهرة بـوضوح في هـذه السّـورة الكـريمـة . وإليـك أهم المواضع دليلاً على ذلك . قال تعالى :[2] ﴿ وإذا أُلْقوا منها مكاناً ضيّقاً مقـرّنين دعوا هنـالك ثبـوراً * لا تدعـوا اليوم ثبـوراً واحداً وادعـوا ثبوراً كثيـراً ﴾ وقال[3] : ﴿ يـوم يرون المـلائكة لا بشـرى يومئـذٍ للمجـرمين ويقولون حِجْراً محجوراً ﴾ وقال[4] : ﴿ وقدِمْنـا الى ما عملوا من عمـل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ وقال[5] : ﴿ أصحاب الجنّة يـومئذٍ خَيْـرٌ مستقـرّاً وأحسن مقيـلاً ﴾ وقال[6] : ﴿ والّـذين يقولـون ربّنا هب لنـا من أزواجنا وذرّيّاتنا قرّة أعينٍ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ .

---

(١) آية ، ٥١ .

(٢) آية ، ١٣ ، ١٤ .

(٣) آية ، ٢٢ . وجاء التّعبير ﴿حجراً محجوراً﴾ في الآية الثّالثة والخمسين كذلك .

(٤) آية ، ٢٣ .

(٥) آية ، ٢٤ .

(٦) آية ، ٧٤ .

(٥) حاولنا أن نستفيد من طريقة عرض السّورة الكريمة للمعاني والأفكار في سبيل معرفة معاني بعض الأجزاء الّتي اختلفت حولها آراء الدّارسين .

وقد تكون المواضع غير بعيدة من بعضها وقد تكون بعيدة . ومثال الأوّل قوله تعالى في الآية التّاسعة والخمسين : ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ إذ استفدنا في سبيل تعيين المعنى المراد من وضوح المعنى في الآية السّابقة في قوله تعالى : ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ . فقد عاد الضّمير هنا إلى الذّات العليّة فينبغي أن يعود الضمير في الآية التالية كذلك إلى الذّات العليّة . كما أنّ لفظة ﴿ خبيراً ﴾ في الموضعين ينبغي أن يكون المقصود بها الذّات العليّة أيضاً . ومثال الثّاني ، الاستفادة من معنى جملة : ﴿ شاء ﴾ من قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظّلّ ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشّمس عليه دليلاً ﴾ وجملة ﴿ شئنا ﴾ من قوله تعالى : ﴿ ولو شئنا لبعثنا في كلّ قريةً نذيراً ﴾ في سبيل الوصول إلى معرفة نوع الحياة الّتي يعنيها القول عن الذّات العليّة : ﴿ إن شاء ﴾ من الآية الكريمة ردّاً على الكافرين : ﴿ تبارك الّذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً ﴾ .

(٦) القرآن الكريم كتاب هداية أوّلاً وأخيراً . وقد راعت دراستنا البيانيّة هذه الحقيقة .

(٧) حاولت دراستنا البيانيّة ، جهد الطّاقة ، أن تبيّن العلاقات الواضحة والخفيّة بين أجزاء السّورة الكريمة ، متقاربة ومتباعدة . ونعتقد أنّ مثل هذه المحاولة ربّما تساعد على الكشف عن السّرّ في كون قارىء القرآن الكريم لا يزداد بقراءته إلاّ حُبّاً في الاستزادة من

القراءة والتّدبّر . حقّاً إنّ ذلك عائدٌ إلى قدرة القرآن الكريم العجيبة على إرضاء كلّ عقل وإشباع كلّ نفس وتشنيف كلّ أذن . وحقّاً إنّ ذلك عائدٌ إلى التّوازن العجيب في القرآن الكريم بين القدرات الثّلاث هذه الّتي نتبيّنها في كلّ آيةٍ بل في كلّ جزئيّة من آية . ومعنى هذا أنّ من واجب كلّ دراسٍ للقرآن الكريم دراسة بيانيّة أن يحاول جهد الطّاقة تبيين هذه القدرات المتوازنة في كلّ ما يدرس . وتبدو قيمة الكشف عن مثل هذا التوازن ، الّذي هو من مظاهر إعجاز هذا الكتاب العزيز ، حينما نتحوّل إلى آثار البشر العاديّين فنتبيّن أنّها تنقسم للوهلة الأولى مدرستين كبيرتين ، تُعْنَى إحداهما أكثر بالمضمون وتعْنى ثانيتهما أكثر بالشكل . وتبعاً لهذه العناية ، المختارة أو المفروضة ، انقسم المتذوّقون فريقين ، يتذوّق كلّ آثار المدرسة الّتي يفضّل . أين مثل هذا الاختلاف في الحبّ والكره من إجماع قارئي القرآن الكريم قاطبة ، مهما تباينت أذواقهم وثقافاتهم ، على الإعجاب بكلّ ما يقرؤون منه وفهمه . كلّ في حدود طاقته . ومهما يكن الفكر عميقاً غوره واسعاً مداه ، فإنّه على يقينٍ أبداً ، من ان بحر معاني القرآن الكريم ليس له قرارٌ ولا شاطىء .

ولو حاولنا نحن من ناحيتنا أن نقرّب للأذهان طريقة عرض القرآن الكريم للمعاني الّتي يتصدّى لها فماذا نحن قائلون ؟ لنتعامل مع قطرات المطر الّتي تنزل من السّماء . فلو تأمّلنا قطعة صغيرة من الأرض تحيط بها العينان ، وأبصرنا قطرات المطر تنزل تباعاً ، لتبيّنّا أوّل الأمر أنّها تترك مسافات واسعة أو ضيّقة بين القطرة والأخرى ، ولا تلبث هذه المسافات أن تأخذ تضيق بفعل قطرات الماء المتتابعة ، حتّى تغطّي القطعة من الأرض كلّها بالماء ، في طريقة تخلب اللّب وتأسر القلب وربّما أطربت الأذن . وبعد حين ، تنبت هذه الأرض ، إن كانت

خصبة ، من كلّ زوجٍ بهيج .

ونحن حينما نتأمّل سورة من سور القرآن المجيد ، نحسّ بأنّنا أمام قطرات من الماء نزلت من السّماء ، ولكنّها قطرات ماء الأرواح وليس الأبدان . كما نحسّ بأنّ ثمّة وجه شبه بين طريقة نزول ماء الأبدان من السّماء ، وماء الأرواح ، على أشرف الأنبياء والمرسلين ، فلو تأمّلنا ، مثلاً ، طريقة عرض سورة الفرقان لمعانيها ، لراعنا أنّ موضوعاتها كلّها تسير وفق الآية الأولى من السّورة الكريمة ، قال تعالى : ﴿ تبارك الّذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ . وهذه الموضوعات هي : توحيد اللّه تعالى ، القرآن الكريم ، الرّسول العظيم ، العالمون بنوعيهم ، الّذين لا ينفع معهم الإنذار والّذين ينفع معهم . وقد تمثّلت الثّمرة أخيراً ، وذلك في القسم الّذي يعرض عدداً من صفات عباد الرّحمن .

وإنّ طريقة القرآن الكريم في عرضه للمعاني ، والّتي وجدنا لها شبهاً في نزول قطرات الماء من السّماء ، من أهمّ مظاهر التّرابط بين موضوعات السّورة . فنحن نحسّ أنّ الكلام جديد قديم مستأنف وغير مستأنف . ونضرب لذلك بعض الأمثلة . حينما تعرض السّورة الكريمة لاعتراضات الكافرين على الرّسول الكريم والقرآن الحكيم ، لا تكتفي بالعرض ـ أو الرّدّ بعد ذلك ـ مجرّداً ، إنّما تضيف وصف القوم بما هم أهل له . فهم يوصفون مرّة بالكفر : ﴿ وقال الّذين كفروا إن هذا إلاّ إفكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون ﴾ ومرّة أخرى بالظّلم : ﴿ وقال الظّالمون إن تتّبعون إلاّ رجلاً مسحوراً ﴾ . ويلاحظ أنّ الوصف بالظّلم يجيء بين يدي الاعتراض الرّابع من الاعتراضات الأربعة الّتي جاءت في نسق ، ولا يجيء بين يدي الاعتراض الأوّل منها ، لأنّ وصف القوم بالكفر جاء غير بعيد بين يدي اعتراض للكافرين سابق . وحينما يردّ

على ثالث الاقتراحات ـ وفق إعادة ترتيب الرّدود على الاقتراحات ـ يضاف إلى ذلك وصف القوم ضمناً بأنّهم فتنة . وبين يدي الرّدّ على الاقتراح الرّابع يقال عن القوم : ﴿ وقال الّذين لا يرجون لقاءنا ﴾ . وسبق أن نبّهت الآيات إلى أنّ القوم قد كذّبوا بالساعة . وحيث إنّ الرّدود قد عنيت بتصوير خزي الكافرين في اليوم الآخر ، فنحن نتبيّن أنّ مشاهد ذلك اليوم المتتابعة تعرض لها آيات هذا القسم من السّورة في مواضع مختلفة ، على غرار ملء قطرات ماء السّماء ما تركت من فراغات ، حتّى إذا لم يبق سوى الطّريقة الّتي يُحْشَرْ فيها القوم ، ختم القسم بقوله تعالى : ﴿ الّذين يحشرون على وجوههم إلى جهنّم أولئك شر مكاناً وأضلّ سبيلاً ﴾ .

وعلى الرّغم من كون كفّار مكة مضطربين فكريّاً وغير منصفين وكاذبين ، فإنّ القرآن الكريم سرد اعتراضاتهم في أسلوبه المعجز . وبعد أن ظهرت الاعتراضات في أوضح صورة ، كرّت الآيات الكريمة عليها بالنّقض ، الواحد تلو الآخر . وقد تبيّن أنّ للقرآن الكريم طريقته الفريدة العجيبة في الرّدّ على هذه الاعتراضات . وإذا كان ذلك قد تجلّى من ذي قبل في سرد الاعتراضات ، فقد تجلّى ذلك أيضاً في إعادة ترتيب الاعتراضات حين الرّدّ ، وفق حكمة بديعة وفلسفة رائعة يمكن إيجازها في تحوّل آيات الرّدّ المطرد من سهل الاعتراضات إلى صعبها ، من أبسطها إلى ما يحتاج إلى فطنة من القوم وحذق .

وحيث إنّ القرآن الكريم قد صرّف اللّه تعالى فيه ضروب القول من وعد ووعيد . قصص وأمثال ، حكم وأحكام الخ ، فمعنى هذا أنّنا بصدد ضَرْبٍ من الكلام ذي أشكال مختلفة ، وهذا يذكرنا بضروب المطر المختلفة . وأنت تستطيع أن تقول أيضاً إنّ أمواج بحر معاني

القرآن المتلاطم تتلاحق متجانسة . تبعاً لطبيعة الموضوع أو الموضوعات الّتي تعالجها السّورة الكريمة وجنوحها نحو الهدوء أو العنف ، الهمس أو الصّخب . فلو أنعمت النظر في سورة الفرقان هذه لتبيّنت جنوح بعض الأجزاء نحو العنف والصّخب ، ويبدو ذلك حتّى نهاية القسم الرّابع من السّورة حيث تركّزت فاصلة الرّاء فجاءت في ثلاث وأربعين آية من اثنتين وستين . وفاصلة الرّاء أشدّ فواصل السّورة الخمس قوّة . والمعروف أنّ هذه الأقسام الأربعة تطبع بصفة الإنذار الّتي أشارت إليها الآية الأولى من السّورة الكريمة . ولتبيّنت أيضاً ، جنوح بعض الأجزاء نحو الهدوء والهمس ، ويبدو ذلك واضحاً في القسم الخامس والأخير من السّورة الّذي يتعامل بالدّرجة الأولى مع عباد الرّحمن والّذي يتكوّن من خمس عشرة آية ، حيث جاءت فاصلة حرف الميم ، وهو من الحروف الرّخوة ، اثنتي عشرة مرّة من أربع عشرة مرّة جاءت فيها هذه الفاصلة في السّورة . أمّا الآيات الثلاث الباقية في القسم فقد كان من نصيب فاصلة النّون آيتان والباء آية واحدة . وما قيل عن حرف الميم يصحّ أن يقال عن النون والباء . والمعروف أنّ هذا القسم الأخير يطبع بصفة التّبشير الّتي مهّد لها في القسم الرّابع بتمهيداتٍ عدّة .

ويلاحظ أنّ القسم الأوّل من السّورة قد وردت فيه أكثر فواصل السّورة دوراناً فيها ، ومرتّبة حسب كثرتها ، وهي على التّوالي الرّاء والّلام والميم[1] .

---

(١) جاءت فاصلة الرّاء في ثلاثٍ وأربعين آية ، والّلام في سبع عشرة آية ، والميم في أربع عشرة آية والنون في آيتين والباء في آية واحدة .

القسم الأول

محمّدٌ صلّى اللّه عليه وسلّم
عبد اللّه ورسوله للعالمين

قال تعالى : ﴿ تبارك الّذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ . إنّ : تبارك ، مطاوع بارك ، وهو فِعْلٌ لا يتصرّف ، ولم يستعمل في غيره تعالى ، فلا يجيء منه مضارعٌ ولا اسم فاعل ولا مصدر[1] وإذا كان بمعنى تمجَّد أو تعظّم أو تعالى وما إلى ذلك ، فإنّه يكون صفة ذات ، أي ذو المجد والعظمة والتعالي . وإذا كان من البركة ، أي التّزايد في الخير من قِبَلِه ، فإنّه يكون صفة فعل ، أي زاد خيره وتكاثر عطاؤه[2] .

والفرقان ، من أسماء القرآن الكريم ، لأنّه يُفْرَقُ به بين الحقّ والباطل ، الخير والشّرّ ، المؤمن والكافر . لقد أودع اللّه تعالى في الإنسان القدرة على التّمييز عن طريق العقل ، وعلى الاختيار عن طريق الإرادة . والعقل والإرادة من أكبر نعم اللّه تعالى على الإنسان الّذي كرّمه وخلقه في أحسن تقويم . فعليه أن يُحْسن الانتفاع من كلّ ذلك .

---

(١) البحر المحيط ، ٦/ ٤٨٠ .

(٢) انظر البحر المحيط ٦/ ٤٨٠ والكشّاف ١/ ٣٩٩ .

قال تعالى[1] : ﴿ ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النّجدين ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ونفسٍ وما سوّاها ، فألهمها فجورها وتقواها ﴾ .

ويلاحظ أنّ القرآن الكريم يستعمل بشأن المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم في هذه الآية الكريمة وفي الكثير من الآيات لفظة العبد ، تقريراً لمكانة أشرف الخلق صلّى اللّه عليه وسلّم ودفْعاً عاجلاً لشبهة أدنى غلوٍّ فيه عليه الصّلاة والسّلام ، وتحذيراً من طرف خفيّ للأمة الإسلامية ، أن تتورّط فيما تورّط فيه مثلاً النّصارى بشأن عيسى ابن مريم عليهما السّلام . إنه عليه الصّلاة والسّلام ليس إلاّ واحداً من البشر كما نصّ على ذلك القرآن الكريم في العديد من المواضع وكما صرح عليه الصّلاة والسّلام هو نفسه في الكثير من المناسبات مثل قوله لِرجُلٍ وقف بين يديه خائفاً : هوّن عليك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القَديد[3] .

وإنّما نزّل اللّه تعالى القرآن الكريم على عبده محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم ، في طريقة واحدة معيّنة ، تُعْتبر أسمى طرق إنزال الوحي ، وذلك عن طريق جبريل عليه السّلام الّذي يَنْزِلُ بما تيسّر من القرآن عليه صلى اللّه عليه وسلّم في حال يقظته الكاملة . جاء في سورة الشعراء[4] قوله تعالى : ﴿ وإنّه لتنزيل ربّ العالمين ، نزل به الرّوح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسانٍ عربيٍّ مبين ﴾ .

---

(١) سورة البلد ، ٨ ـ ١٠ .

(٢) سورة الشمس ، ٧ ـ ٨ .

(٣) القَديد : اللّحم الّذي يُوضَعُ على خَصَفة أو غيرها لِيَجفّ .

(٤) آيات ، ١٩٢ ـ ١٩٥ .

والّذي يكون للعالمين نذيراً هو المصطفى صلى اللّه عليه وسلّم ، عبد اللّه تعالى ورسوله . وما المراد بالعالمين ؟ المراد الإنس والجنّ . فكما أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم قد بُعِثَ إلى الإنس فقد بُعِث إلى الجنّ . جاء في سورة الأحقاف[1] قوله تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن فلمّا حضروه قالوا أنصتوا فلمّا قُضِيَ ولّوْا إلى قومهم منذرين ، قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أُنْزِل من بعد موسى مصدّقاً لما بين يديه يهدي إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعي اللّه وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذابٍ أليم . ومن لا يجب داعي اللّه فليس بِمُعْجزٍ في الأرض وليس له من دونه أولياء ، أولئك في ضلالٍ مبين ﴾ وجاء في سورة الجن[2] قوله تعالى : ﴿ قُلْ أوحِيَ إليَّ أنّه استمع نفرٌ من الجنّ فقالوا إنّا سمعنا قرآناً عجباً ، يهدي إلى الرُّشد فآمنّا به ولن نشرك بربّنا أحداً ﴾ .

وجاء في السّورة ذاتها عن هؤلاء الجنّ الّذين تزاحموا على المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ، يستمعون إليه وهو يرتّل القرآن الكريم ترتيلاً ، قوله تعالى[3] : ﴿ وأنّه لمّا قام عبد اللّه يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ .

فإذا تحوّلنا إلى نصيب الإنس من لفظة العالمين ، تبيّن أنّا بحاجة إلى أن نقف عندها مليّاً . وأوّل انطباعٍ يحصل عليه المتأمّل هو أنّها شاملةٌ لكلّ عباد اللّه تعالى ، فهي تمتد بلا حدود كي تشمل كلَّ مكان

---

(١) آيات ، ٢٩ ـ ٣٢ .

(٢) آية ، ١ ، ٢ .

(٣) آية ، ١٩ .

وزمان ، فلا فرق بين جنسٍ وجنس ، ولا لونٍ ولون ، ولا لغةٍ ولغة . وهذا الانطباع يحصل عليه المتأمّل من اشتمال اللّفظة على جنس الجنّ فمن باب أولى أن تشتمل على جنس الإنس ، لأنّ الرّسالات السّماويّة ألصق بالإنس منها بسواهم . كما يحصل عليه من مجيء اللّفظة في صيغة الجمع ، إذ مفرد هذه اللّفظة « عالم » يشمل ما لا يأتي عليه الحصر من خلق اللّه تعالى .

ويرسخ هذا الانطباع بالوقوف على الحقيقة الأزليّة الّتي يمتاز بها الإسلام وينفرد بها أساساً وهي أنّه دين الله تعالى للنّاس أجمعين وأنّ رسوله مبعوثٌ للنّاس كافّة بشيراً ونذيراً . وقد جاءت الإشارة إلى طبيعة هذا الدّين في مثل قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ وما أرسلناك إلّا كافّة للنّاس بشيراً ونذيراً ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون ﴾ وقوله[2] : ﴿ قل يا أيّها النّاس إنّي رسول اللّه إليكم جميعاً الّذي له ملك السّماوات والأرض لا إله إلّا هو يحيي ويميت فآمنوا باللّه ورسوله النّبيّ الأمّيّ الّذي يؤمن باللّه وكلماته واتّبعوه لعلّكم تهتدون ﴾ وقوله في الآية الكريمة الّتي نحن بصددها من سورة الفرقان : ﴿ تبارك الّذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ .

وقد ارتبط بانفراد الإسلام بكونه رسالة اللّه تعالى إلى النّاس حقائق عدّة منها :

(١) وصول البشريّة في مدارج النُّضج والرّقيّ إلى مرحلة الرُّشد الّتي تلائمها الرّسالة السّماويّة الخاتمة الشّاملة للنّاس أجمعين في

---

(١) سورة سبأ ، آية ٢٨ .

(٢) سورة الأعراف ، ١٥٨ .

مشارق الأرض ومغاربها وفي كلّ العصور . والّتي يلائمها ـ بالدّرجة الأولى ـ الكتاب العزيز الّذي يُرْضي كلّ عقل ويشبع كلّ نفس .

(٢) كون رسول هذه الرّسالة الشّاملة خاتَماً للأنبياء والمرسلين . وإلى هذه الحقيقة أشار قوله تعالى في سورة الأحزاب[١] : ﴿ ما كان محمّدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول اللّه وخاتَم النّبيّين وكان اللّه بكلّ شيء عليماً ﴾ .

(٣) لأنّ هذه الرّسالة شاملةٌ وأخيرة ، والرّسول صلّى اللّه عليه وسلم ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، كان كتاب اللّه تعالى الأخير بمنأى عن أدنى تحريفٍ أو تبديل ، ولا يتسنّى ذلك إلاّ بتكفُّل ربّ العزّة بحفظ ذلك الكتاب العزيز الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإلى هذه الحقيقة أشارت الآية الكريمة[٢] : ﴿ **إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنا له لحافظون** ﴾ . وهذه خاصّةٌ انفرد بها القرآن الكريم بين كلّ الكتب السّماوية ، فهي ليست للتّوراة ولا للإنجيل ولا للزّبور ولا لأيّ كتابٍ سماويّ آخر .

وإنّ حفظ اللّه تعالى لكتابه ، إذ تواتر النّقل والعقل على ذلك الحِفظ ، أتاح لكلّ من منّ اللّه تعالى عليه بنعمة العقل والإنصاف ، أن يتدبّر القرآن الكريم وينتهي إلى أنّه من حكيمٍ حميد . ومع أنّ القرآن الكريم ، وقد يسّره ربّ العزّة للذّكر ، يستطيع كلُّ متدبّرٍ أن يأخذ منه ما يوافق استعداده وطاقته ، فإنّ العقل البشريّ ، كلّما كان عميقاً غوره ، تبيّن أن بحر معاني القرآن الكريم أبعد عمقاً وأوسع مدًى . ولا يستطيع المنصف إلاّ أن ينتهي إلى الإيمان باللّه تعالى ، منزّل القرآن الكريم ،

---

(١) آية ، ٤٠ .

(٢) سورة الحجر ، ٩ .

رَبّاً ، وبمحمَّدٍ صلّى اللّه عليه وسلّم ، الّذي نزل عليه الذِّكر الحكيم ، نبيّاً ، وبالإسلام ، الّذي ارتضاه ربّ العزّة لعباده ، ديناً . قال عزّ من قائل[1] : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحق ، أو لم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد ﴾ .

إنّ واجب المسلمين في أنحاء المعمورة أن يعضّوا بنواجذهم على القرآن الكريم . وهل ثمّة من واجبٍ على المسلمين بتقدم على واجبهم تجاه كلام ربّهم الّذي يسّره ربّ العزّة للذّكر فيتدبّروه ويتمشّوا وفق تعاليمه الّتي تكفل لهم العِزّ في الدّنيا والنّجاة في الآخرة ؟

وقد نال اللّغة العربيّة والأمّةَ الإسلاميّةَ ، ببركة حفظ اللّه تعالى الكتاب العزيز خيرٌ كثير ، ليس هذا مجال الخوض في تفاصيله . وتكفي الإشارة بشأن اللّغة العربيّة إلى أنّ الكتاب العزيز سبب حفظ اللّغة العربيّة منطوقة فيما يُسَمَّى الفُصْحى ومكتوبة فيما يُسَمَّى بالخطّ العربيّ الإسلاميّ أو الكتابة العربيّة الإسلاميّة . ولو قلنا : « ومكتوبة في خطّ المصحف العثمانيّ » لأصبنا كبد الحقيقة . فببركة الكتّاب العزيز حفظت الكتابة وقواعد النّحو . أمّا الكتابة فإنّها سارت دائماً وتسير في ظلّ كتابة المصحف الشّريف من عهد عثمان بن عفّان ، رضي اللّه تعالى عنه ، ثالث الخلفاء الرّاشدين . وأمّا النّحو العربيّ . فيكفي أن نعرف أنّه ببركة القرآن الكريم قد وُلِدَ كاملاً في أوّل كتاب شاملٍ لقواعده ألا وهو كتاب سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ هـ . وتكفي الإشارة بشأن الأمّة الإسلاميّة ، إلى أنّها بمنابة الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائره بالسّهر والحمّى ، على حدّ قوله عليه الصّلاة

---

(١) سورة فُصِّلت ، ٥٣ .

والسّلام . ولا يشعر المسلم بالغُرْبة مطلقاً ، مهما نأت به الدّار ، ما دام يسمع صوت الأذان للصّلاة ، يملأ آذان الآفاق خمس مرّاتٍ في اليوم الواحد .

(٤) شاءت إرادة اللّه تعالى أن تكون عناية المسلمين بالسّنّة النّبويّة المطهّرة . ـ ونعني بها أقواله صلّى اللّه عليه وسلّم وأفعاله وتقريراته وصفاته ـ بدرجةٍ ليس لها نظير في كلّ الدّيانات ، فقد انكبّ العلماء يجمعون السّنّة ويمحّصونها وينفون الزّيف عنها . وحُقّ للمسلمين أن يُعْنَوْا بسنّة نبيّهم صلّى اللّه عليه وسلّم وهو الّذي قال : لقد أوتيت القرآن ومثله معه ، يعني السّنّة النبويّة المطهّرة . والمعروف أنّ السُّنّة مبيِّنةٌ للقرآن الكريم ، ومفصِّلةٌ لموجزه ، وكاشفةٌ عن مبهمه .

وقد نالت شخصيّة المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم من العناية ما هي خليقة به ، بحيث إن الكتب الّتي ألّفت في السّيرة العطرة لا يمكن أن يأتي عليها الحصر ، « واعتبر ذلك بما صُنّف باللّغة الأورديّة الحديثة وحدها في موضوع السّيرة النبوية ، مع أنّ الأورديّة لم تصر لغة تأليف إلاّ منذ قرنين على الأكثر . وفي تقديري أنّ ما صُنّف بها وحدها في السّيرة النبويّة يبلغ ألْفاً إن لم يزد عليه »[1] . وقد حفظت لنا كتب الحديث من أقواله صلّى اللّه عليه وسلّم وأفعاله وأحواله ما يبلغ مائة ألف حديث . وقد امتاز الصّحيح منها عن الضّعيف والموضوع ، والقويّ منها عن غير القوي[2] وكان من جرّاء ذلك أنّنا نعرف كلَّ صغيرة وكبيرة عن حياة سيّد الخلق عليه الصّلاة والسّلام . وكيف لا يكون الأمر كذلك وهو الّذي لا ينطق عن الهوى وهو ذو الخلق العظيم كما صرح

---

(١) الرّسالة المحمّديّة ، السّيد سليمان النّدوي ص ٩٦ .

(٢) الرّسالة المحمّديّة ، ص ٩٣ .

القرآن الكريم . وكيف لا يكون الأمر كذلك وهو الذي أذن ـ مثلاً ـ لصاحب الصحيفة الصّادقة عبد اللّه بن عمرو بن العاص أن يكتب كلّ ما سمعَ منه عليه الصّلاة والسّلام[1] وكيف لا يكون الأمر كذلك وهو الّذي أذن لأزواجه ، رضوان اللّه تعالى عليهن ـ فضلاً عمّا سواهنّ ـ أن ينقلن عنه كلّ ما يسمعن من قول وما يُبْصِرْن من سلوك . وكانت نتيجة العناية الفائقة بسيرة المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ، خير خلق اللّه تعالى ، أن أصبح بين يدي البشريّة وأمام عينيها أصدق الوثائق وأكملها عن حياة هذا الرّسول الكريم . ومن ثمَّ تسنَّى لكلّ إنسانٍ سليم الفطرة أن يتّخذ من هذا الرّسول الكريم المثال الأعلى الّذي يُحْتذى ، في السِّلم والحرب ، في الرّخاء والشّدة ، في الغنى والفقر ، في المنزل والمسجد والسّوق ، في البيع والشّراء ، في تعبئة الجيوش وميدان المعركة وإبرام المعاهدات وحفظ العهود والانتصار بعد الظُّلم والعفو عند المقدرة وباختصار في مجالات العبادة والمعاملة والسُّلوك .

وهكذا يجد كلُّ إنسان ، أيّاً كان ، في هذا الرّسول الكريم المثال الّذي يحتذى ، وكلّه سعادةٌ وفخر ، بل أملٌ ورجاء أن يستطيع جهد الطّاقة محاكاة هذا الرّسول الكريم في الجانب من السّيرة العطرة الذي يحرص على أن يقلّد ، سواءً أكان أباً أو زوجاً أو عائل أسرة أو إماماً أو قاضياً أو قائداً أو حاكماً أو جنديّاً أو عابداً ، مصلّياً أو مزكّياً أو متصدّقاً أو صائماً أو حاجّاً أو معتمراً أو قارئاً للقرآن أو كبير قوم . . . الخ . سواءً أكان منتصراً أو ـ لا سمح اللّه ـ منهزماً كما في أحدٍ وحنين ، غنيّاً أو فقيراً ، محاطاً بأوليائه أو اندس بينهم خصومه ، كما هو الحال بشأن اليهود أوّلاً والمنافقين ثانياً . إنّ كلَّ إنسان سليم الفطرة يجد في رسول

---

(١) الرّسالة المحمّديّة ص ٨٠ .

اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم دائماً المثال الأعلى الّذي يحتذى .

ولا تعرف الإنسانية سيرة كاملة من جميع الجوانب موافقة لكلّ عباد اللّه تعالى السّليمي الفطرة . سوى سيرة محمّد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إذ تتحقّق فيها ـ دون سواها ـ هذه الخصال الأربع الّتي تهيّىء لسيرة العظيم أن تتّخذ قدوةً في الحياة .

(١) أن تكون تاريخيّةً أي أنّ التاريخ الصّحيح الممحص يصدّقها ويشهد لها .

(٢) أن تكون « جامعة » أي محيطة بأطوار الحياة ومناحيها وجميع شؤونها .

(٣) أن تكون « كاملة » أي أن تكون متسلسلة لا تنقص شيئاً من حلقات الحياة .

(٤) أن تكون « عمليّة » أي أن تكون الدّعوة إلى المبادىء والفضائل والواجبات بعمل الدّاعي وأخلاقه ، وأن يكون كلّ ما دعا إليه بلسانه قد حقّقه بسيرته وعمل به في حياته الشخصية والعائليّة والاجتماعيّة ، فأصبحت أعماله مثلاً علياً للنّاس يأتون بها . وأنا لا أقول إنّ الأنبياء صفرت صحائف حياتهم من هذه الميزة مدّة وجودهم في الحياة الدّنيا ، بل أقول إنّ سيرتهم الّتي توجد الآن بين أيدي النّاس لا تنصّ على هذه الأمور[1] .

وحينما نضيف إلى وحدة الشّخصيّة المحكيّة في الإسلام ، وحدة النّصّ القرآنيّ ، وصحّة نصوص السّيرة النبويّة المطهّرة ، نستطيع أن نفهم السّرّ في كون المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بمثابة الجسد

---

(١) الرّسالة المحمّديّة ص ٦٨ .

الواحد ، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائره بالسَّهر والحُمَّى ، وشعور كل فردٍ من أبناء الأمّة الإسلامية ، ما دام في دار الإسلام ، بأنّه في داره بين أهله وذويه ، مهما نأت الدّار وغاب الأهل . وكلُّ هذه الحقائق الّتي ينفرد بها الإسلام ، خادمةٌ لوعد اللّه تعالى بأن يُظْهر هذا الدّين على الدّين كُلّه ولو كره المشركون .

(٥) حيث إنّ دين الإسلام ، الّذي ارتضى اللّه تعالى لعباده ، رسالته عزّ وجلّ للنّاس كافّة في مشارق الأرض ومغاربها ، وينبغي أن يصل صوت هذه الرّسالة ، في كلّ جيل ، للنّاس أجمعين ، وذلك يحتاج لتضافر الكثير من الجهود ، فقد كانت مسؤوليّة نشر هذه الرّسالة موزّعةً بين كلّ المهيّئين للقيام بهذه المهمّة ، وليست وقفاً على فئةٍ دون فئةٍ أو جماعةٍ دون جماعة . إنّ كُلَّ فردٍ قادرٍ على القيام بمهمّة تبليغ الرّسالة وتأدية الأمانة يعتبر عُضْواً في تلك الأمّة الّتي نصّ عليها قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ **ولتكن منكم أمّةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ . لقد طلب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم من الّذين خطبهم في حجّة الوداع ـ مثلاً ـ وكان عددهم حوالي المائة ألف ، أن يبلّغ الشّاهد الغائب فربّ مبلَّغٍ أوعى من سامع . وقد فهم كلّ فردٍ أنّه مكلَّف بأن يبلّغ الرّسالة ويؤدّي الأمانة ، ولهذا وجدنا الصّحابة والتّابعين والتّابعين لهم بإحسان ، ينتشرون في أرض اللّه تعالى الطويلة العريضة ، يبلّغون رسالة ربّهم وينشرون ، بين أمم الأرض ، عقيدة التّوحيد ، أغلى ما يملك المؤمن في هذا الوجود ، حتّى إنّهم يضحّون في سبيلها بكلّ شيء ، بالأموال والأرواح . وهل كان ضَرْب هؤلاء الدُّعاة في الأرض إلّا استجابةً لأمر

---

(١) سورة آل عمران ، ١٠٤ .

اللّه تعالى وأمر رسوله ، وهل كان جهادهم إلاّ في سبيله عزّ وجلّ ، لرفع راية التّوحيد وإعلاء كلمة اللّه تعالى ، وإعطاء عباد اللّه تعالى الحرّيّة الكاملة لاختيار الدّين الّذي يرتضون دون أدنى ضغط من كافّة الجهات . ومن هنا كان عدم إكراه النّاس على الدّخول في دين اللّه تعالى الّذي ارتضى لعباده من صميم تعاليم الإسلام[1] : ﴿ **لا إكراه في الدّين** ﴾ وفي الوقت ذاته واجب المسلمين أن يعملوا بكلّ الوسائل لإيصال كلمة الحق إلى كلّ أذن ، وإن حِيلَ بينهم وبين أن يدعوا إلى اللّه تعالى بكامل الحرّيّة ، فقد أذن لهم في القتال ، حتّى يتسنّى لهم تحقيق كامل الحريّة ، بشأن الاعتقاد ، لكلّ عباد اللّه تعالى . ومن هنا كان الجهاد في سبيل اللّه تعالى من صميم تعاليم الإسلام ، ومن هنا كان إعداد المؤمنين ما يستطيعون من قوّة لمجابهة كافّة الاحتمالات من صميم تعاليم الإسلام أيضاً .

وحينما طبّق المسلمون في صدر الإسلام تعاليم الإسلام ، انطوت تحت أقدامهم الأرض ، فامتدّوا ، من المحيط إلى المحيط ، في فترةٍ من الزّمن قصيرة لا يكاد يصدّقها عقل ، إذ إنّها ليس لها نظيرٌ في كلّ عصور التّاريخ ، ولكن الإيمان بصنع المعجزات . وحينما صدق المؤمنون اللّه تعالى ما وعدوه صدقهم وعده في مثل قوله تعالى[2] : ﴿ **وعد اللّه الّذين آمنوا منكم وعملوا الصّالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الّذي ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ .

---

(١) سورة البقرة ، ٢٥٦ .

(٢) سورة النّور ، ٥٥ .

(٦) كون رسالة الإسلام خاتمة الرّسالات السّماويّة لأهل الأرض، وكـون القرآن الكـريم خاتمـة كلام اللّه تعـالى لعبـاده ، استتبعـا تـأييـد السّماوات العُلَى لهذا الدّين الّذي ارتضى لعبـاده ، للمؤمنين حقّاً بـاللّه تعـالى ربّـاً ، وبـالإسـلام دينـاً ، وبمحمـدٍ صلّى اللّه عليـه وسلّم نبيّـاً ورسولاً . وقد تجلّى ذلك في وعد اللّه تعالى الّذي لا يخلف في غير ما مـوضعٍ من كتابه العزيز بأنّ هذا الـدّين سيظهـره اللّه تعالى على الـدّين كلّه ولـو كره المشـركون . جـاء في سورة التّـوبة[1] مثـلاً قولـه تعالى : ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور اللّه بأفواههم ويـأبى اللّه إلاّ أن يُتمّ نوره ولـو كره الكافرون * هو الّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون** ﴾ وجاء في سورة الفتح[2] قـوله تعـالى : ﴿ **هو الّذي أرسـل رسولـه بالهُـدى ودين الحقّ ليظهـره على الدّين كُلّه وكفى باللّه شهيداً** ﴾ . ولهذا كان هذا الدّين قـوّة إيجابيّـة دائماً . وحتّى في حـال انحـطاط المسلمين ، فـإنّ هـذا الـدّين هـو الّـذي حفـظهم ويحفـظهم دائماً من أن تَمَّحِيَ شخصيّتهم أو أن يـذوبـوا في سـواهم . وإنّها لحيويّةٌ في هذا الدّين تفوق كلَّ تقدير ، وتجعله متقدّمـاً دائماً إلى الأمام . يغزو الوهاد والنجّاد ، ويعبر البحار ويجوب الآفاق . وحتّى في أحلك الفتـرات الّتي يمـرّ بهـا المسلمـون ، ولتكن ممثّلة في طـرد المسلمين من إسبـانيا ، بعـد أن مكثوا زهـاء ثمانيـة قرون ، كـان هـذا الدّين ، في ذلك الوقت ، يجوب آفاقاً أخـرى واسعة في آسيـا الصّغرى وجنـوب شرقي آسيـا وتستطيـع أن تتبين هذه الحقيقة في كلّ منـاسبـة . ولعلّك تريد أن تقـول : وما الّـذي يقابـل ذهاب فلسـطين لليهود وطـرد المسلمين منهـا ؟ والجواب على ذلـك يتمثّل في نشـوء دولة البـاكستان

---

(١) آية ، ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) آية ، ٢٨ .

الإسلامية الفتيّة في ذات الوقف ، هذا إلى أنّ الأمل كبيرٌ في اللّه تعالى أن تعود القدس وفلسطين وسائر البلاد الإسلاميّة ومقدّساتها مرّة ثانية إلى حظيرة الإسلام عن طريق الإسلام دين الجهاد في سبيل اللّه تعالى[1] .

(٧) بسبب حفظ اللّه تعالى لكتابه وسلامة السّنّة المطهّرة ومعرفة سيرة المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم معرفةً تامة كان الإسلام ديناً ودنيا عقيدة وشريعة . ولهذا كان مفهوم العبادة في الإسلام واسعاً إلى أبعد الدّرجات . فكلّ عمل يريد المسلم به وجه ربّه الأعلى يعتبر عبادة . فانفرد المسلم بالإحساس الدّائم بالطّمأنينة الّتي تشمله والسّعادة الّتي تغمره . بينما يبحث غيره عن مثل ذلك فلا يكاد يجد . وربّما آثر حياة اللّهو واللّعب ، وربّما آثر أخيراً أن يضع حدّاً لحياته بالانتحار لأنّه فشل في تحقيق الطمأنينة والسّعادة في هذه الحياة الدّنيا الّتي يعتبرها نهاية المطاف فالتخلص منها أفضل وأولى .

(٨) شاءت إرادة اللّه تعالى أن يكون الإسلام هو الدّين الّذي استطاع ، منذ بزوغه ، أن يقضي على الوثنيّة قضاءً مبرماً . ومن ثمّ كانت تعاليمه بيضاء نقيّة . وترك المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم في أتباعه الحنيفيّة السّمحاء الّتي يشبه ليلها نهارها ، وتمشّى المسلمون بنصيحة نبيّهم عليه الصّلاة والسّلام حيث قال في خطبته بحجّة الوداع[2] : « وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبداً ، أمراً بيّناً ، كتاب اللّه وسنّة نبيّه » وقد جاء في هذه الخطبة ما يفهم منه

---

(١) أوحت المناسبة بهذه الرّباعيّة :

يقولون منك القُدْسُ غيرُ بعيد ... إذا الشَّرْق أضحى منك حبل وريد

وليس يعيد القُدْسَ غيرُ بُنود ... تَروعُ فؤاد الشّرق قبل يهود

(٢) السّيرة النبوية ، ٢/٦٠٤ .

القضاء المبرم على الوثنيّة وسلامة عقيدة التّوحيد سلامة كاملة . قال عليه الصّلاة والسّلام[1] : « أما بعد ، أيُّها النّاس ، فإنّ الشّيطان قد يئس من أن يُعْبَدَ بأرضكم هذه أبداً » .

وإنّما تظهر قيمة نقاء الحنيفيّة السّمحاء منذ فجرها ، حينما نتحوّل إلى المسيحيّة مثلاً ، فنتبيّن أنّ تعاليمها ، منذ نعومة أظفارها ، قد شابتها عناصر وثنيّة ، فقد أراد أتباعها استمالة الوثنيين أوّل الأمر وتملّقهم ، ولكنّ الثّمن كان باهظاً للغاية[2] ولعلّ تصوّر المسيحيّة لطبيعة الذّات العليّة ، اللّه والابن وروح القدس ، أخطر جوانب هذه القضيّة . وحينما تكون عقيدة التوحيد في الإسلام ، هي السّالمة من أيّة شائبة ، فإنّ ذلك أيضاً ، خادمٌ لوعد اللّه تعالى الحقّ ، بأن يظهر دين الإسلام على الدّين كلّه ولو كره المشركون .

إنّ آية سورة الفرقان : ﴿ **تبارك الّذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً** ﴾ مقرّرةٌ لحقيقة التّوحيد ووجوب إفراده عزّ وجلّ بالعبادة . يظهر ذلك في فصل الآية الكريمة الشّافي بين مقام الألوهيّة الّذي يتمثّل في إنزال اللّه تعالى الفرقان ، وبين مكان العبوديّة ، الّذي يتمثّل في محمّد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم الّذي أنزل عليه الفرقان . وإذا كان خير خلق اللّه تعالى رمز العبوديّة للّه ربّ العالمين ، فذلك معناه وضوح الحدود الّتي يقف عندها عباد اللّه تعالى ولا يتعدّونها ، ووضوح حقيقة توحيد اللّه تعالى وإفراده بالعبادة .

---

(١) السّيرة النبويّة ، ٢/٦٠٤

(٢) انظر هنا مثلاً، كفاح دين، لمحمّد الغزالي ص ١٢٧ الطبعة الرّابعة ١٣٨٩ هـ و١٩٦٩م دار البيان ، الكويت . وتأمّل ما جرى على ألسنة الّذين اعتنقوا الدّين الإسلامي في هذا الشّأن وذلك مثلاً كتاب «لماذا أسلمنا » ص ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٦١ وغيرها من الصّفحات .

وإذا كانت الآية الكريمة هنا قد اكتفت بالإشارة إلى كون عبد اللّه تعالى ورسوله نذيراً للعالمين ، مع أنّه بشير أيضاً ، فلأنّ سورة الفرقان مكيّة ، وتتعامل في مجموعها مع كفّار مكّة بالذّات ، المكذّبين للرّسول الكريم ، المنكرين للبعث . مع العلم بأنّه بعد أن خفّت حدّة التّعبير جاءت في السّورة الإشارة إلى البشير والنّذير معاً ، وذلك في قوله تعالى[1] : ﴿ **وما أرسلناك إلاّ مبشّراً ونذيراً** ﴾ .

للّه تعالى وحده الخلق والأمر فهو المستحقّ للعبادة .

قال تعالى : ﴿ **الّذي له ملك السّماوات والأرض ولم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريكٌ في المُلْك وخلق كلَّ شيء فقدّره تقديراً * واتّخذوا من دونه آلهةً لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لانفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً** ﴾

فمع أولى الآيتين ، قال تعالى : ﴿ **الّذي له ملك السّماوات والأرض ولم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريكٌ في الملك وخلق كلَّ شيء فقدّره تقديراً** ﴾ .

هذه الآية الكريمة مرتبطةٌ بسابقتها تمام الارتباط، فاسم الموصول الّذي العائد على الذّات العليّة مبدلٌ من اسم الموصول ذاته في الآية الأولى فمحور الحديث في الآيتين إذن واحد . إنّه في كلتا الآيتين يدور حول توحيد اللّه عزّ وجل . وإذا كان ذلك يبدو في الآية الأولى واضحاً ، فإنّه أشدّ وضوحاً في الآية الثّانية ، إذ إنّها تنفي صراحة عنه عزّ وجلّ الولد والشّريك وتثبت الملك والخلق . وإنّ إثبات كلّ من الملك والخلق ، وبخاصّة أنّ الآية التّالية قد نفتهما عن كلّ الآلهة الّتي

---

(١) آية ، ٥٦ .

تُعْبد من دون اللّه تعالى ، خادمٌ لقضيّة التّوحيد ومعمّقٌ لها . إنّ الآية الكريمة تتحدّث عن قممٍ عالية وقضايا غاية في الأهمّيّة والنُّبل . فنحن بصدد خلق اللّه تعالى للسّماوات والأرض وما بينهما في أعلى درجات الإتقان والكمال ، وخضوع كلّ هذه المخلوقات للذّات العليّة ، حيث إنّها كلّها تسير وفق الخطّ المقدّر لها المرسوم : ﴿ **فلن تجد لسنّة اللّه تبديلاً ولن تجد لسنّة اللّه تحويلاً** ﴾[1] . وكأنّ هذه الآية الكريمة تتمشّى في جوهرها مع هذه الآيات الكريمة من سورة فُصِّلتْ[2] : قال تعالى : ﴿ **قل أإنّكم لتكفرون بالّذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك ربّ العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيّامٍ سواءً للسّائلين * ثم استوى إلى السّماء وهي دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فقضاهنّ سبع سماواتٍ في يومين وأوحى في كلّ سماء أمرها ، وزيّنّا السّماء الدّنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ .

إنّ هذه الحقائق الثّلاث ، ينبغي أن يأخذها كلُّ متدبِّرٍ بعين الاعتبار ، وهي .

(أ) إيجاد اللّه تعالى لكلّ المخلوقات من العدم .

(ب) وكون كلّ هذه المخلوقات قد قدّره ربُّ العزّة تقديراً ، ويأتي الإنسان من بين سكّان الأرض ، على رأس القائمة ، فقد خُلِق في أحسن تقويم .

---

(١) سورة فاطر ، ٤٣ .

(٢) آيات ، ٩ ـ ١٢ .

قال تعالى[1] : ﴿ **والتين والزّيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** ﴾ .

(جـ) بيد اللّه تعالى ملكوت كلّ شيء وإليه الرّجوع .

وهذه الحقائق الثلاث المتساوقة مترابطة تماماً . وما الّذي يمكن في حالة الرّغبة في الإيجاز إلاّ أن يقال مع القائل :

وفي كلّ شيءٍ له آيةٌ تدلّ على أنّه واحد

وليس ثمّة شيءٌ واحدٌ من مخلوقاته عزّ وجلّ أولى بالحديث عنه من غيره ، لأنّها كلّها غايةٌ في الدّقّة والإحكام ، ولأنّها كلّها ، وهذا من صميم معنى ملك اللّه تعالى للسّماوات والأرض ـ تسير بإرادة اللّه تعالى وعنايته في الخطّ المقدّر لها المرسوم ، وهو ما يمكن أن نسمّيه : سنن اللّه تعالى في الكون . خذ على سبيل المثال ما شئت من أجرام ضخمة للتّدليل على ما تقول ، ولتكن هذه الكواكب السّيارة في هذا الفضاء الرّحيب الّذي لا يعلم مداه إلاّ اللّه عزّ وجلّ . إنّ احتمال اصطدام ذبابتين ـ كما يقول بعض ذوي الاختصاص ـ تنطلق إحداهما من الشّرق وثانيتهما من الغرب ، أكثر من احتمال اصطدام كوكبين اثنين من ملايين الملايين من الكواكب السّيّارة المعلّقة بيد القدرة الإلهيّة في الفضاء ! وخذ على سبيل المثال أيضاً أصغر الأجرام السّماويّة ألا وهي الذّرّة ، واصغ إلى قول العلماء عن سيطرة نواة كلّ واحدة منها على نشاطها باطّراد . وخذ بين ذلك الجبال الّتي جُعِلَتْ للأرض أوتاداً ، والبحرين اللّذين أُرْسلا متجاورين هذا عذبٌ فراتٌ سائغٌ شرابه وهذا مِلْحٌ أجاجٌ وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً . خذ ما شئت من جليل المخلوقات في عينك وهيّنها ، تأمّلْ وتدبّرْ . إنّها كلّها غايةٌ في الدّقّة

---

(١) سورة التين ، ١ ـ ٤ .

والكمال والقيام بالدّور الّذي خُلِقَتْ من أجله ، والخضوع للّه تعالى الّذي له وحده الخلق والأمر . إنّ المنصف لا يملك إلّا أن يردّد في خشوع قوله تعالى[1] : ﴿ **فسبحان الّذي بيده ملكوت كلّ شيء وإليه تُرْجعون** ﴾ وقوله[2] : ﴿ **إنّا كلّ شيءٍ خلقناه بقدر** ﴾ وقوله[3] : ﴿ **قد جعل اللّه لكلّ شيء قدراً** ﴾ وقوله : ﴿ **وخلق كلَّ شيءٍ فقدّره تقديراً** ﴾ .

ولمّا كان المحور الّذي تدور حوله الآية هو توحيد اللّه تعالى وضرورة إفراده عزّ وجلّ بالعبادة ، فقد نفت الآية الكريمة ، أقرب ما يتبادر إلى الذّهن ممّا يتعارض مع التّوحيد . وفي نفي القريب نفيٌ للبعيد ، وهذا من باب أولى . وأقرب ما يتبادر إلى الذّهن الولد والشّريك . ولو أنّنا تحوّلنا إلى طبيعتنا نحن البشر ، لتبيّنّا أنّ حاجتنا إلى الولد سابقة حاجتنا للشّريك أو المعين وأشدّ . وربّما استغنينا بالولد عن الشّريك ، الّذي نحتاج إليه عادة حينما لا نتبيّن في أولادنا العون المطلوب ، أو أنّ طبيعة عملنا المتشعّب تحتاج لشريك أو أكثر له أو عليه نصيبه من الغنم أو الغُرْم . إنّ هذا الامتداد الطّبيعيّ لحاجة الإنسان في العون ، من الولد فالشّريك ، قد نبهت إليه الآية الكريمة حينما قدّمت في الذّكر الولد على الشّريك . وحينما يُنْفى الولد تُنْفى الصّاحبة ، قال تعالى[4] : ﴿ **قل هو اللّه أحد ، اللّه الصّمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ وفي ذلك ردٌّ على كلّ المشركين وفي مقدّمتهم اليهود والنّصارى والعرب .

---

(١) سورة يس ، ٨٣ .

(٢) سورة القمر ، ٤٩ .

(٣) سورة الطّلاق ، ٣ .

(٤) سورة الإخلاص .

وإذا كانت هذه الآية الكريمة ، تركّز على انفراده عزّ وجلّ بالخلق والمُلْك ، فإنّ الآية الكريمة التّالية ، تركّز على خلوّ الآلهة الّتي تُعبد من دون اللّه تعالى ، من أدنى ذرّة من الخلق والملك . وحيث إن إيجاد المخلوقات يسبق التّحكم فيها ، فقد راعت هذه الآية ، كما راعت سابقتها ، هذا التّرتيب ، قال تعالى : ﴿ **واتّخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً** ﴾ .

ويتّضح خطأ هؤلاء العابدين للآلهة من دون اللّه تعالى بصورة أوضح حينما نقارن بين ما توحى به الآية السّابقة من قدرةٍ للّه تعالى وحده وحكمةٍ في الخلق والأمر وبين ما تنصّ عليه هذه الآية بشأن الآلهة المدّعاة من قلّة حيلة وعجز . فإذا كان اللّه تعالى هو الّذي خلق السّماوات والأرض وقدّر كلّ شيء تقديراً ، فإن هذه الآلهة لم تخلق شيئاً ، فكيف يتجاوز المشركون عبادة اللّه تعالى خالق كلّ شيء إلى عبادة ما لا يخلق شيئاً لعجزه وقلّة حيلته ، بل إنّه بعضٌ ممّا خلق عزّ وجلّ . ولكنّه ابن آدم الّذي ارتضى لنفسه أن يرتدّ أسفل سافلين بعد أن خلقه بارئه في أحسن تقويم وكرّمه وفضّله على كثير ممّن خلق تفضيلاً . ولا ينتهي العجب حينما يتّضح أنّ هذا الإنسان يعبد أحياناً بعض الآلهة الّتي يصنع بيديه من حجر أو خشب أو عجوة . فإذا وجد خيراً من إلّهه الّذي صنع أوّل الأمر احتضنه واطّرح الحجر أو الخشب جانباً . وربّما جعل الحجر واحدة الأثافي والخشب وقوداً لناره . أمّا إذا عضّه الجوع ولم يجد سوى إلّهه المصنوع من عجوة فإنّه لا يجد أدنى غضاضية في أن يفترس إلّهه المزعوم وجبةً شهيّة أو وجبات يزدرده فيها ازدراداً !

وهل هذه الآلهة المخلوقة المزعومة ، في هيئة الملك أو الإنسان ، قادرةٌ على أن تدفع عن نفسها الضّرر أو أن تجلب النّفع ؟ لا . إنّها عاجزة عن دفع الضّرر عن نفسها ومن باب أولى أن تكون أشدّ عجزاً عن جلب النفع ، لأنّ هذا صعب ، فكيف بالموت والحياة والنشور . إنّ اللّه تعالى هو الخالق الآمر ، بينما الآلهة المزعومة مخلوقة للّه تعالى ، وبعضها يصنعه الإنسان . وهذا أدهى . وإنّ اللّه تعالى هو الّذي يدفع الضّرّ عن خلقه ويجلب لهم النّفع ، بينما الآلهة المزعومة أعجز من أن تدفع عن نفسها ، فضلاً عمّا سواها ، أو أن تجلب ، ضرّاً أو نفعاً . وإنّ اللّه تعالى المتفرّد بالخلق والأمر ، قد أوجدنا لحكمة سامية ، فخلق الموت ، والحياة بعد الموت ، ليبلونا أيّنا أحسن عملاً ، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ، إلاّ من أتى اللّه بقلبٍ سليم .

والّذي جعل هؤلاء المشركين يعبدون هذه الآلهة المزعومة ، جهلهم بأنّ ثمّة حكمة سامية لوجودهم تتجلّى في قوله تعالى[1] : ﴿ **وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون** ﴾ . بل ظنّوا أنّ هذه الحياة الدّنيا غايةٌ في ذاتها فلا بعث ولا نشور ، ولا ثواب ولا عقاب . وذلك سرّ الضّلال الّذي هم فيه سادرون ، قال تعالى[2] : ﴿ **وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدّنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدّهر وما لهم بذلك من علمٍ إنْ هُمْ إلاّ يظنّون** ﴾ . وحينما بعث اللّه تعالى إلى سكّان مكة رسوله الكريم ، وأنزل عليه قرآنه الحكيم ، كان منهم الّذين جاء عنهم في سورة ص[3] قوله تعالى : ﴿ **وعجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم وقال**

---

(١) سورة الذاريات ، ٥٦ .

(٢) سورة الجاثية ، ٢٤ .

(٣) آيات ، ٤ ـ ٨ .

الكافرون هذا ساحرٌ كذّاب * أجعل الآلهة إلهاً واحداً ، إنّ هـذا لشيءٌ عجـاب * وانطلق المـلأ منهم أن امشوا واصبـروا على آلهتكم إنّ هذا لشيءٌ يـراد * ما سمعنـا بهذا في المـلّة الآخـرة إنْ هـذا إلاّ اختـلاق * أأنْـزِل عليه الـذِّكْر من بيننـا بل هم في شـكٍّ من ذكرى بـل لمّا يـذوقوا عذاب ﴾ .

ولعلّنا تبيّنّا أن آيـة الفرقـان قد نبّهت إلى التّـرتيب الطّبيعيّ بشـأن الخلق فالتّدبير ، والتّرتيب الطّبيعيّ الّذي تتـطلّبه المنـاسبة ، بشـأن دفع الضـرّ فجلب النّفع ، والتّـرتيب الطّبيعيّ لمـوت الأحياء ، فـالبعث بعـد الموت ، فالنُّشور للحساب .

على أنّ ثمّة ملاحظة على درجةٍ كبيرةٍ من الأهميّة ، لأولى الآيتين بالذّات ، كبيـر فضل في لفت الانتبـاه إليها حينمـا نتبيَّن أنّ أحد أقسـام السّـورة سيتمشّى في ضوئهـا مستقبلاً . وبعبـارة أخرى ، إنّ هـذه الآية الكريمة تعيّن الزّاوية الّتي سَتُعْنى بها السّورة مستقبلاً ، وبخاصّـة القسم الّذي يلفت الانتباه إلى عدد من آيات اللّه تعـالى الدّالّـة على قدرتـه عزّ وجلّ . أمّا هذه الملاحظة المهمّة فهي أنّ الآية الكريمة تركّز على صفة القيام على المخلوق . على صفة القيّوميّة بأكثر من الخالقيّة .

ما قال الكافرون عن الفرقان والرّدّ عليهم .

قال تعالى : **﴿ وقال الّذين كفـروا إنّ هذا إلاّ إفْـكٌ افتراه وأعـانه عليـه قومٌ آخـرون فقد جـاءوا ظلماً وزوراً * وقـالـوا أسـاطيـر الأوّلين اكتتبهـا فهي تُمْلي عليه بكـرةً وأصيلاً * قُـلْ أنزلـه الّذي يعلم السّـرّ في السّماوات والأرض إنّه كان غفوراً رحيماً ﴾ .**

إنّ هـذا القرآن الكـريم ، في نظر كفّـار مكّة ، كمـا تقـول الآيـة

الأولى ، ليس إلاّ أكبر الكذب ـ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذباً ـ الّذي جرى على لسان محمّدٍ صلّى اللّه عليه وسلّم ، تعمُّداً منه لذلك ، واستعانة بآخرين على تحقيقه . وهؤلاء الكافرون ، بشهادة الآية الكريمة ذاتها الّتي فنّدت كذبهم حالاً ، قد ظلموا المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ، المعروف لهم من قبل مثلاً للأمانة والصّدق ، وظلموا أنفسهم إذ أساؤوا إليها من حيث ظنُّوا أنّهم محسنون . كما أنّهم بإرسال مثل هذا القول الخطير على عواهنه ، ولما يترتّب عليه من إساءة بالغةٍ للإسلام ونبيّه ، بمنزلة الّذين يُدْلون بشهادة الزّور ، العارفين قبل الإدلاء بها أنّهم كاذبون . وتأمَّلْ جملة جاء من قوله تعالى : ﴿ **فقد جاءوا ظُلْماً وزوراً** ﴾ الّتي تستعمل عادةً في المجيء الفعليّ ، ومن ثمَّ هي أقدر على الدّلالة بأنّ هؤلاء القوم ، تعمّدوا مع سبق إصرار ، أن يرتكبوا ما يعلمون يقيناً أنّه ظلْمٌ وزور . وكيف لا يكون الأمر كذلك ، وهؤلاء القائلون أفصح العرب ، وأقدر النّاس على فهم معاني ما يلقى إليهم من قولٍ وإعطاء قيمته الحقيقيّة ، وقد بهرهم القرآن الكريم ببديع نظمه وجليل معناه . وبدلاً من أن يعترفوا بإعجاز القرآن الكريم ويؤمنوا بأنّه كلام ربّ العالمين ، نزل به الرّوح الأمين ، على الرّسول الكريم ، إذا بهم يتورّطون في كلّ ادّعاءٍ وكذبٍ ، زور وبهتان .

والعجيب في الأمر أنّه رغم عجز كفّار مكّة على عهد الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، وعجز كلّ الفصحاء ، خلال العصور ، عن الإتيان بمثل سورة واحدة من أقصر سور القرآن الكريم ، فإنّ كلام كلّ العاجزين الحاقدين ، سواءٌ أكانوا عرباً أم عجماً ـ واحد . نقرؤه ونسمعه دائماً . ويزول عجبنا حينما نتذكّر أنّ قلوب هؤلاء جميعاً

تشابهت في بغض كلّ خير لعباد اللّه تعالى ، وفي مقدّمة كلّ ذلك القرآن الكريم ، والرّسول العظيم ، والسّنّة المطهّرة . لذا كان ما يصدر من هؤلاء متشابهاً تبعاً لتشابه المصادر المريضة بداء الحسد والحقد . ﴿ **أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾[1] ؟ . إنّ الحسد والحقد متأصّلان . لدرجة أنّ أدنى عنايةٍ تكون من نصيب الدّين الّذي ارتضى ربّ العزّة لعباده لا تزيد هؤلاء المرضى إلاّ حسداً إلى حسد وحقداً إلى حقد . وعلى سبيل المثال لا يزيدهم فرط العناية بالقرآن الكريم إلاّ حِرْصاً على ترديد ما قاله كفّار مكّة بحذافيره ، مضيفين إلى ذلك ما جادت به نفوسهم الأمّارة بالسّوء ، محاولين النّيل بالذّات من هذه الآية الكريمة الّتي يتكفّل فيها ربّ العزّة بحفظ كتابه العزيز[2] : ﴿**إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون**﴾ .

وممّا يحلو لهؤلاء أن يردّدوا ، قول كفّار مكّة إنّ هذا القرآن الكريم قد علّمه النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم واحدٌ من البشر . والعجيب أنّ هذا الواحد أو الأفراد أعاجم ، لو قرأ الواحد منهم لما أحسن الفهم ، ولو تكلّم لما أجاد البيان . وقد ردّ القرآن الكريم على أولئك جميعاً في قوله عزّ من قائل[3] : ﴿ **ولقد نعلم أنّهم يقولون إنّما يعلّمه بشر ، لسان الذي يلحدون إليه أعجميّ وهذا لسانٌ عربيٌّ مبين** ﴾ .

ويصحّ أن نقول ردّاً على هؤلاء الأعاجم ، الّذين لم يثبت عن أكثرهم أنّهم برّزوا في لغاتهم فضلاً عن أن يبّرزوا في فهم أسرار الكتاب العزيز الّذي نزل في أدق اللّغات قاطبةً وأكملها ، فكيف يصحّ

---

(١) سورة محمّد ، ٢٤ .

(٢) سورة الحجر ، ٩ .

(٣) سورة النّحل ، ١٠٣ .

لأعجميّ أن يؤلف القرآن لعربيّ ، بل لأفصح العرب قاطبة ، يصحّ أن نقول : لم تُفْلِح العُرْب حتّى تُفْلِحَ العَجَم . إنّ أساطين البلاغة من العرب أعجز من أن يحيطوا ببعض أسرار الكتاب العزيز ، فضلاً عمّا وراء ذلك ، بدليل أنّ المتأخّرين ، في الدّراسات القرآنيّة ، حريصون دائماً وأبداً على أن يكشفوا عن بعض أسرار هذا الكتاب ، وكلّهم يقين بأنّ ما خَفِيَ من أسرار ذلك البحر اللّجي الّذي لا تفنى عجائبه ، أكثر ممّا ظهر . فهل بعد كلّ هذا يُصْغى لقول حاسدٍ أو جاحد ؟ لا واللّه الّذي لا إله إلاّ هو[1] .

وقد بيّنت الآية الكريمة التّالية ، شيئاً من طبيعة العون الّذي يزعم كفّار مكّة أنّه قُدّم للنبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم بشأن القرآن . قال تعالى : ﴿ **وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تُمْلي عليه بكرةً وأصيلاً** ﴾ .

فهؤلاء الكفّار ، الّذين يحاولون جاهدين ، بكلّ الوسائل ، أن يضبطوا نفوسهم المندفعة تجاه سماع القرآن الكريم يرتّله المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم في المسجد الحرام أو في منزله ترتيلاً ، وأن يقسروا الآخرين بما لهم من سلطان على ألاّ يصغوا له عليه الصّلاة والسّلام ، يرتل القرآن الكريم في المسجد الحرام ، لما يعرفون له من سلطانٍ على النفوس وسحرٍ يجذب القلوب ، ماذا يقولون أيضاً ، حسداً من عند أنفسهم عن هذا القرآن ؟ إنّهم يقولون ـ فيما يقولون من سُخْفٍ وهراء ـ إنّ هذا القرآن ليس سوى تلك الأساطير الّتي سمعها المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم من الّذين التقى بهم في حلّه وترحاله ، فألّف منها

---

(١) لا يملّ خصوم هذا الدّين ، في كلّ مناسبة ، من إزعاجنا بترديد هذه الأباطيل . ونحن لا نملّ من الرّد عليهم ، وتفنيد أخطائهم وكشف نواياهم .